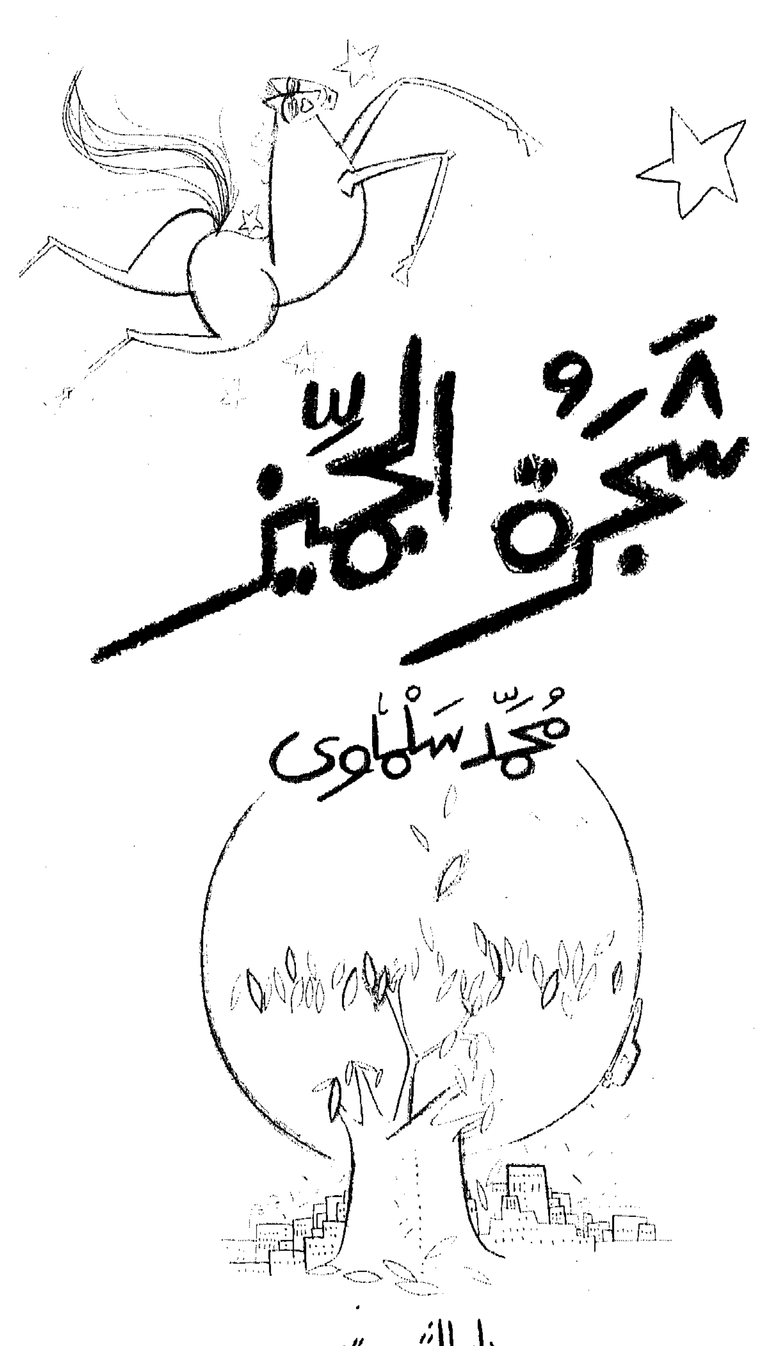


دار الشروق



شجرة الجنة

شجرة الجميز

الطبعة العربية الأولى 2003



تأليف: محمد سلماوى
تصميم الغلاف والرسوم: وليد طاهر

دار الشروق

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٢/١٨٥٢١
I.S.B.N: 977-09-0870-3

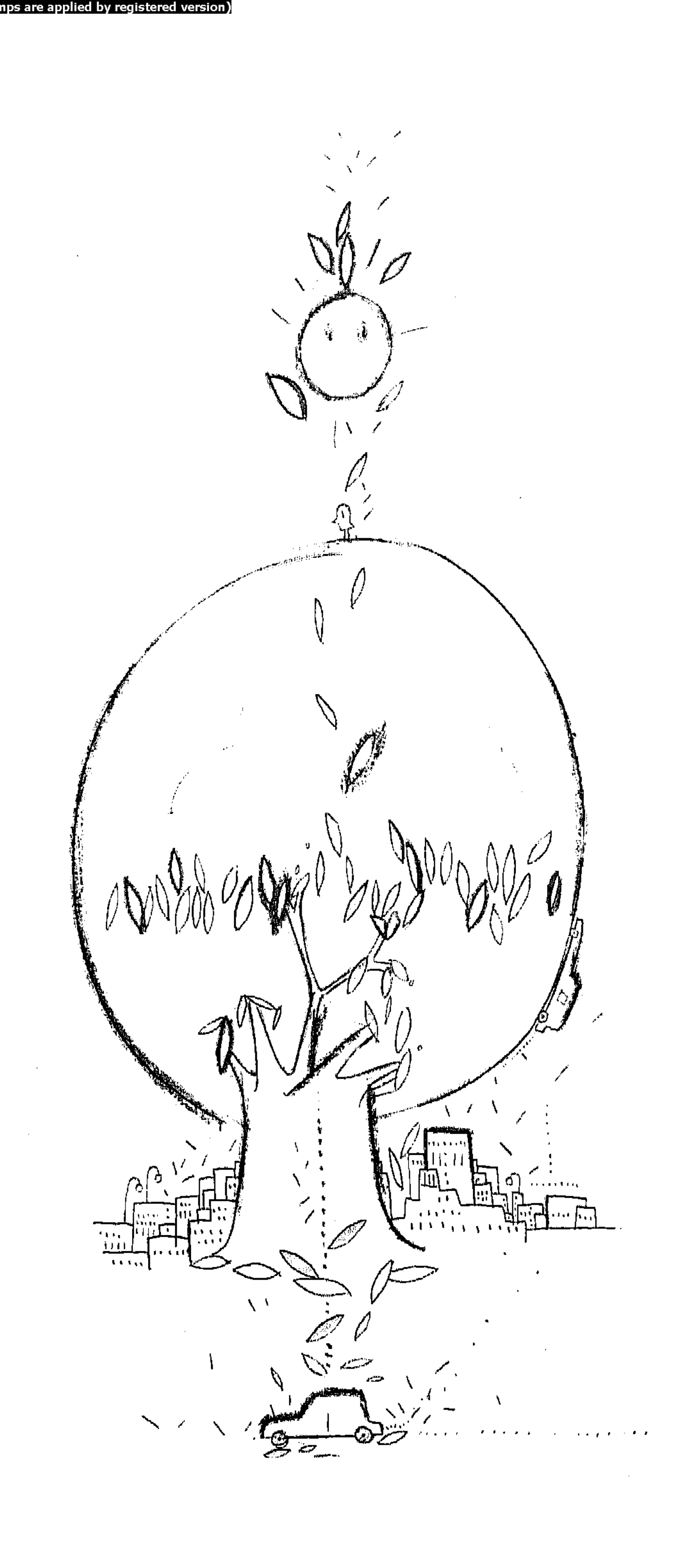
8 شارع سيبويه المصرى- مدينة نصر- القاهرة.
تليفون: 4023399 ـ فاكس:4037567
مكتبة الشروق: 1 ميدان طلعت حرب.
مكتبة الشروق: 35 شارع الجيزة - مبنى فيرست.
dar@shorouk.com
www.shorouk.com

شجرة الجميز

محمد سلماوي

دار الشروق

شجرة الجميز





كان يوما شتويا باردا، وكانت شجرة الجميز العتيقة مازالت صامدة برغم السنين الطويلة التى مرت عليها منذ زرعت فى أحد شوارع ضاحية المعادى الهادئة قبل أكثر من خمسين عاما.. فى ذلك الوقت، كان كل شارع من شوارع المعادى يصطف على جانبيه نوع من أنواع الأشجار يختلف عن أشجار الشارع الآخر، وكان هذا الشارع هو شارع أشجار الجميز.

وفى هذا اليوم، كانت الرياح عاتية وكأن عاصفة قد هبت على المدينة تريد إزاحتها من مكانها. ومع هبوب الرياح مرت على شجرة الجميز ذكريات أيامها التى مضت كشريط سريع ينافس فى سرعته اندفاع الريح، فقد شهدت الشجرة تاريخا طويلا منذ كان معظم من يمرون عليها من سكان الشارع من الإنجليز ببشرتهم التى فى حمرة لون علم الإمبراطورية البريطانية. حينذاك كانت ضاحية المعادى تمتلئ بالخضرة التى تتوسطها فيللات لا تعلو بأى حال من الأحوال على ارتفاع الأشجار. أما الآن فها هى العمارات الأسمنتية الشاهقة تحل محل الفيللات القديمة التى كانت مقامة فى معظمها على الطراز الإنجليزى القديم، والتى هدمت الواحدة منها تلو

الأخرى لتفسح المكان لتلك الأبراج التى يتكدس فيها السكان فوق بعضهم البعض، لتعلو عشرة أدوار أو عشرين أو ثلاثين.

ولو كانت الفيللات وحدها هى التى تهدمت لكان الأمر أقل خطورة، لكن المؤسف والمحزن هو أن الأشجار التى كانت نابضة بالحياة قد تم اقتلاعها هى الأخرى. فكما اختفت الفيللات القديمة من شوارع الحى الهادئ - أقصد الذى كان هادئا - اختفت معها أيضا الأشجار التى كانت شجرتنا تعرفها واحدة واحدة كما كان كل سكان المعادى يعرفون بعضهم البعض.

كان ذلك كله قبل أن يهجم السكان الجدد على المعادى.. على القاهرة.. على مصر! من أين جاء هؤلاء؟! لم تكن الشجرة تعرف. لقد عرفت الإنجليز وكانت تميزهم ببشرتهم الحمراء وغلظتهم فى التعامل مع السكان. وعرفت أيضا المصريين ذوى البشرة القمحية الذين كانت تملأ الطبيعة قلوبهم، فقد كان عم حسين الجناينى مصريا.. وهو الذى يسقيها يوميا وينظف الأوراق التى كانت تسقط كلما ظهرت فى أغصانها أوراق جديدة. وكان الأطفال فى الحى مصريين، كانوا يقذفون لها بحجر صغيرة فتفيض عليهم بثمارها الشهية. وكانت هى أيضا مصرية، فماذا يمكن أن يكون أكثر مصرية من شجر الجميز؟

إذن فمن أين جاء ذلك الجنس الغريب الذى أصبح يحيط بالشجرة فى حيها الهادئ؟! هم بالطبع ليسوا مصريين. كانوا يشبهون المصريين، لكنهم لا يشتهون ثمارها كالمصريين.

وكانت بهم غلظة كالإنجليز، لكن لم يكن يبدو أن لهم شهية إلا للمال وحده، وذلك ليس مما تعودته الشجرة العتيقة لا من المصريين ولا حتى من الاستعماريين الإنجليز.

كم كانت شجرة الجميز تشتاق إلى أيام صباها حين كانت تلهو مع النسيم وتتلامس أغصانها مع أغصان أخواتها على جانبى الطريق، تماما كما كان الأطفال تحت ظلها يمسكون بأيديهم بعضهم البعض فى ألعاب مرحة لا تنتهى.

أين هى تلك الأيام؟ وأين ذهبت بقية الأشجار؟ لقد مضت الأيام يوما وراء يوم وسقطت الأشجار الواحدة تلو الأخرى. لم يكن يمر عام إلا وترى شجرة الجميز إحدى أخواتها تهوى صريعة وسط الطريق، وقد خرجت جذورها من باطن الأرض كالحيوانات النافقة التى تستلقى على ظهرها وقد ارتفعت أرجلها إلى السماء.

كم كانت الشجرة تبكى كلما شاهدت هذا المنظر البشع لإحدى أخواتها ملقاة أمامها بلا حراك، وقد هجرت العصافير الأعشاش التى بنتها بين أغصانها وهبطت عليها الغربان تنعق كالبوم فى مقابر الأموات.

كانت كل شجرة تبقى ملقاة هكذا عدة أيام إلى أن يجىء عمال البلدية بمناشيرهم الصدئة فيمضون اليوم فى تقطيع أوصالها وتحميلها على سيارات النقل، ثم يرحلون بها. وما أن يحل الغروب حتى يكون الشارع قد خلا من آثار الشجرة ما عدا

الحفرة التى كانت تضم جذورها كالعش الدافئ، ويطلع القمر ليجد شجرة الجميز تبكى وسط الليل إحدى رفيقاتها اللاتى رافقتها فى رحلة العمر الطويل.

ومع مرور الوقت، أصبحت شجرة الجميز وحدها فى هذا الشارع، فكلما سقطت شجرة كان مكانها يبقى شاغرا أو تزرع فيه شجرة أخرى من الأشجار المعروفة باسم «فيكس بنجامينا»، وهى شجرة «شوارع» لا ترقى بأى حال من الأحوال إلى مستوى أشجار الجميز المصرية الأصيلة التى كانت تضفى على الشارع طابعا خاصا تعجز عنه أشجار «الفيكس» هذه التى أصبحت الآن تحيط بها من كل جانب، كما تحيط العمارات الأسمنتية بالقلة القليلة الباقية من ڤيللات الضاحية القديمة.

وبعد أن كانت الشجرة تمضى اليوم تتجاذب أطراف الحديث مع بقية أخواتها من أشجار الجميز الأخرى، أصبح اليوم بأكمله يمضى بها دون أن تتبادل كلمة واحدة مع الأشجار الأخرى التى كانت تتحدث لغة غير ما تعودته من شقيقاتها وتستخدم كلمات غريبة لم تسمعها من قبل.

لكنها أحيانا وسط الليل حين كان الجميع يأوون إلى النوم كانت تسمع صوت الأرض يأتيها من الأعماق، من تحت الرصيف الأسفلتى ليواسيها قائلا: لا تبتئسى أيتها الشجرة الجميلة، فأنا مازلت معك وسأظل أحتضن جذورك فى جوفى كما كنت دائما.

كانت الأرض كثيرا ما تقول لشجرة الجميز العتيقة: إياك أن يدب اليأس فى نفسك. وإلا فستهوين كما هوت شقيقاتك الواحدة وراء الأخرى.. إنك مازلت قوية وجميلة برغم مرور السنين، فاصمدى ولا تذهبى عنى فتتركينى وحدى مع شجرات «الفيكس» هذه البلهاء التى لا تكف عن اللغو والضجيج.

وكانت الشجرة ترد على الأرض قائلة: ولكن إلى متى؟.. إلى متى أظل أقاوم وقد ذهب الجميع؟

لابد أن يوما سيأتى أذهب فيه أنا أيضا كما ذهبت بقية الأشجار.. لابد أن يوما سيأتى تقطع فيه أوصالى كما حدث لشقيقاتى أمام عينى.

ولم تكن الأرض تعرف كيف ترد على ذلك، فكانت تكتفى بالقول: المهم أن نتماسك ونصمد إلى النهاية.

كانت شجرة الجميز ترتاح لحديث الأرض فتغمض عينيها وتنام هانئة إلى أن يطلع عليها النهار فتبدأ الأشجار الأخرى فى لغوها ويبدأ الشارع فى الضجيج وتبدأ القصة من جديد.

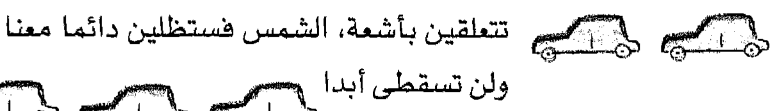
لكن فى هذا اليوم البارد ذى الرياح العاتية، لم تنم الشجرة طوال الليل إلى أن ظهرت أول أشعة الفجر.. كانت شجرة الجميز هى أول شجرة ترى الفجر لأنها كانت أطول الأشجار وأكبرها، وكانت تمضى بعض الوقت تراقب الفجر البعيد فى السماء فتراه لم يتغير منذ عرفته فى صباها حين لم تكن العمارات السكنية تقف حائلا فى الأفق. كانت هى التى تعرف مقدم الفجر قبل بقية الأشجار،

وقبل العصافير النائمة بين أغصانها.

فى هذا اليـوم، احتضنت الشجـرة أول أشعة من شمـس الصباح الهادئة بمجرد أن لامست فروعها وقالت لها: كم سأفتقدك! فقالت لها الشمس: ولم هذا الحديث؟ لقد أتيتك اليوم وأنت مازلت شامخة فى مكانك وسآتى إليك غدا وبعد غد فأجدك دائما فى انتظارى كما كنت طوال عمرك.

فدمعت جميع أفرع الشجرة بقطرات الندى التى تركها عليها الليل وقالت لشمس الصباح: إن كل يوم يمضى يقربنى أكثر من النهاية، وأشعر بأنى سأمضى قريبا كما مضت بقية الأشجار.

فنهرتها الأرض وقالت لها: إننى لا أرى معنى لهذا الحديث. قد يكون اليوم مكفهرا عاصفا، لكن غدا سيكون يوما جديدا .ومادمت أحتضن جذورك، ومادمت تتعلقين بأشعة، الشمس فستظلين دائما معنا ولن تسقطى أبدا



لكن الرياح التى كانت تذهب بكل شىء لم يكن ليعجبها هذا الحديث، فما إن فتحت الشجرة فمها لترد على الأرض حتى هبت ريح وقحة صفعت الشجرة على وجهها فأسكتتها .. وغضبت الأرض أشد غضب، وكاد الفجر يعود أدراجه فلا يجىء فى هذا اليوم الذى اقتحمته الرياح العاصفة بلا استئذان. وسألت الأرض شمس الصباح: من أين أتت تلك الرياح الهوجاء؟ إنها ليست من رياحنا؟ فرد

عليها الفجر: لقد شاهدتها من بعيد وهى آتية من قلب الصحراء، لكن لم أكن أتصور أنها بهذه الوقاحة!

وزادت الريح من شدتها فترنحت الشجرة يمينا ويسارا كما لم تفعل من قبل، لكن الأرض قبضت عليها بكل قوتها وحاولت أشعة الفجر أن تصد عنها الرياح، لكن الرياح زادت من قوتها وهبطت فجأة إلى أسفل فأهاجت الأتربة التى كانت مازالت نائمة على الرصيف وقذفت بها فى وجه الشجرة فأعمتها تماما عن الرؤية. ومرت فى هذه اللحظة سيارة نقل كالثور الهائج وأخرجت من مؤخرتها دخانا أسود كالهباب اختنقت به الشجرة حتى كادت أن يغشى عليها.

أهكذا يكون الصباح؟ ماذا حدث فى الدنيا؟ أين نسيم الفجر العليل؟ أين تغريد العصافير؟ أين تحية الصباح التى كانت تتناقلها الأشجار على امتداد الشارع؟

وشعرت الأرض بما يعتمل فى نفس الشجرة، فاحتضنت جذورها بقوة، وقالت لها شمس الصباح: لا تستسلمى.. لا تضعفى.. إنها لحظات فقط، إن العواصف لا تدوم، فتعلقى بأشعتى وستسلمين.

وفى هذه اللحظة، دخلت الشارع من الناحية المقابلة لسيارة النقل سيارة أخرى لأحد الشباب من أبناء هذا الجنس الجديد الذى غزا البلاد، وكان شابا يمضى الليل بطوله فى السهر واللهو ولا يعود إلى البيت إلا مع نور الصباح، كانت سيارته

أمريكية فارهة وكان بها جهاز موسيقى عالى الصوت كأنه مرقص متنقل، وما كادت السيارة تدخل الشارع حتى كان صوته يرتفع وكأن الشارع قد تحول إلى ناد ليلى.

فى هذا الصباح، كان الشاب مخمورا كعادته ويبدو أنه لم يكن يتوقع وجود سيارات أخرى سائرة فى الشارع فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ففوجئ بسيارة النقل القادمة تجاهه فاندفع بسرعة إلى الجانب الآخر حيث شجرة الجميز فصدمها أسفل جذعها، فصرخت من الألم صرخة مدوية سمعتها بقية أشجار الضاحية.

ومن هول الصدمة المفاجئة أرخت الأرض قبضتها عن جذور شجرة الجميز العتيقة، ورفعت الشجرة يديها التى كانت ممسكة بأشعة الشمس، فهوت بسرعة كالحيوان الجريح على أسفلت الطريق. ما أن ارتطمت الشجرة بالأرض حتى تطايرت من بين أغصانها العصافير التى لم تكن قد صحت من نومها بعد، فأخذت تقفز فى الهواء كالفئران من السفينة الغارقة.

وبمجرد أن سقطت الشجرة صدمتها سيارة النقل من الناحية الأخرى، لكن الشجرة فى هذه المرة لم تصرخ فلم يكن بها صوت.

والتاعت الأرض لهول الموقف، وفزعت الشمس، وحاولت كل منهما إفاقة الشجرة لكنهما لم يفلحا، فقد كانت الشجرة قد فارقت الحياة، وأعادت الأرض للشجرة الحديث الذى كانت تحب لكنها لم تكن تجيب، وربتت الشمس بأشعتها الدافئة على أغصان

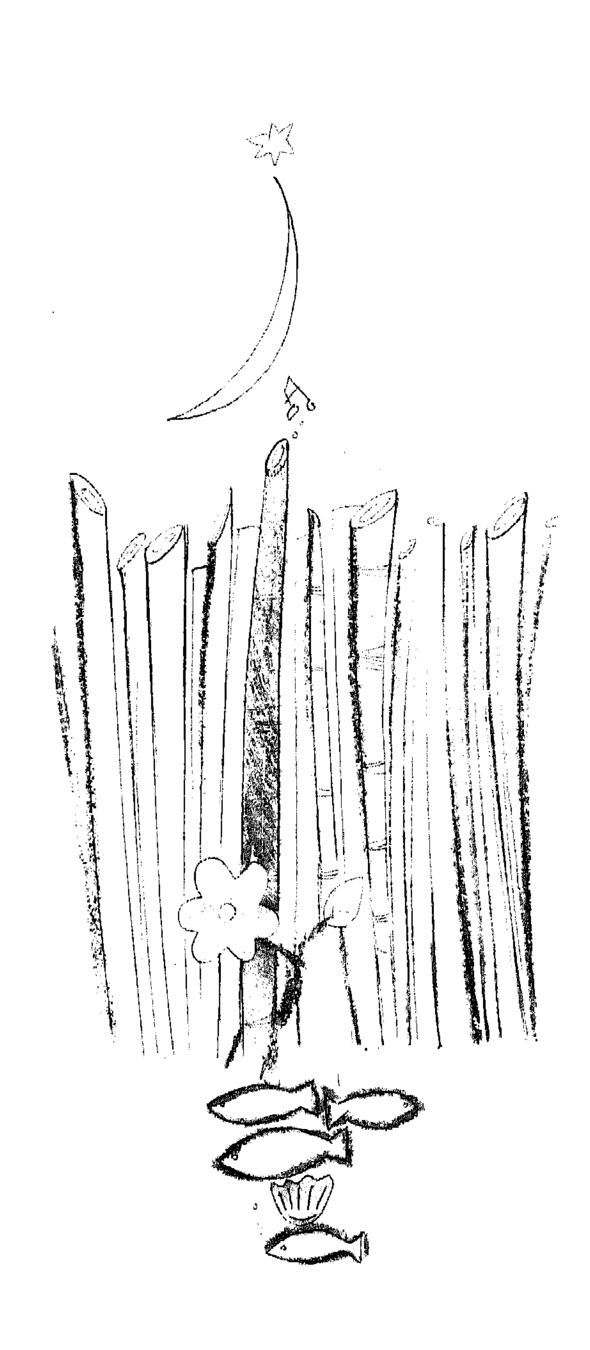
الشجرة علها تنطق، لكنها ظلت مكانها بلا صوت ولا حراك.

وانتحبت الأرض كما لم تفعل من قبل، واحتجبت الشمس وراء سحابة سوداء لتدارى دموعها، وأسقطت حدائق الحى زهورها حزنا على شجرة الجميز، وقررت الشمس عدم الظهور فى ذلك اليوم الحزين، وارتجت الأرض كأنها تريد التخلص من هذه المخلوقات القبيحة التى تقبع على ظهرها، وعربدت الرياح يمينا ويسارا دون أن يوقفها أحد، وافتقرت الضاحية الهادئة لأنها فقدت شجرة أخرى من أجمل أشجارها التى تعودت على وجودها منذ نشأتها قبل سنين طوال.

لكن ما هى إلا دقائق وبدأت الضوضاء تسرى فى الشارع وسمعت الأرض راكبى السيارات يقولون: لا لهذه الشجرة اللعينة! لقد سقطت فى عرض الشارع وسدت علينا الطريق! ومن داخل إحدى السيارات الفارهة جاء صوت يقول: ما شجر الجميز هذا؟ أنحن فى الأرياف هنا؟ ومن داخل سيارة أخرى، صاح أحد الركاب: ياللمصيبة، انظروا كيف حطمت الشجرة تلك السيارة الجميلة! وقال أحد السكان وهو ينزل من البيت ويهم بركوب سيارته: لماذا لا يقتلعون تلك الأشجار القديمة التى لا فائدة منها على الإطلاق؟!



عـود الغـاب





تفتح على الحياة فوجد نفسه مغروسا فى طين مصر الأسود على ضفاف النيل بأعالى الصعيد، فقد كان أحد أعواد الغاب الذى يكثر نموه فى تجمعات كثيفة على ضفتى النهر.. لكنه كان أجمل من بقية أعواد الغاب المحيطة به.. كان عوده طويلا مفتولا وعقلاته رشيقة متناسقة.

ولقد أمضى فى البداية حوالى ثلاثة أشهر لينا أخضر اللون، ثم سرعان ما لفحته شمس صعيد مصر الحارقة، فبدأ عوده يقوى ويصفر لونه، فازداد جمالا بعد أن استبدل بليونته الخضراء تلك الصلابة الصفراء ذات اللمعة الملساء.

كان موضع فخر وإعجاب الجميع. كانت الطيور البرية تعود أدراجها لتلقى نظرة ثانية على عوده الأملس اللامع قبل أن تستأنف رحلتها الطويلة فى موسم الهجرة للشمال.. وكانت الحيوانات المائية والأسماك تسبح بالقرب منه أو تقذف بنفسها خارج الماء لتستقر عند قدميه حتى تتمكن من النظر مليا إلى عوده الفارع قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

لكنه لم يكن يعير ذلك كله اهتماما، فقد كان يداخله يقين قوى بأنه خلق لحياة أخرى، غير تلك الحياة الريفية المتخلفة التى وجد نفسه فيها.

كان يتطلع للذهاب إلى القاهرة مثل أقاربه متيسرى الحال الذين يطلق عليهم اسم الغاب الفارسى، والذين يتم تربيتهم فى مزارع خاصة وبعناية فائقة ليرسلوا بعد ذلك إلى المدينة، حيث تصنع منهم أدوات صيد الأسماك.. أو مثل أقاربه الآخرين ذوى الأعواد السميكة الذين يطلق عليهم اسم «البامبو»، والذين تصنع منهم أثاثات المنازل وأدوات الديكور.

غير أن طموحاته هو كانت تفوق كل ذلك.. فهو لم يكن ليقبل أن يتحول إلى عود للصيد يتدلى منه خيط من النايلون فى الماء، وأن يظل عوده يتقوس ما بين جذب إحدى الأسماك البكماء وقبضتى يدى رجل عجوز يرتدى قبعة بيضاء ويجلس على شاطئ بالإسكندرية.

ولم يكن ليقبل أن يتم طيه وليه ليتحول إلى كرسى يريح عليه أحد الآدميين الجهلاء مؤخرته.

كان يرفض هذا وذاك بمثل ما كان يرفض وقفته الحالية فى شمس الصيف الحارقة وفى أمطار ورياح الشتاء العاتية. لا، ليس هذا ما خلق له هذا العود الجميل من الغاب!

كان يعلم فى قرارة نفسه أن أحد أمهر صانعى الآلات الموسيقية فى القاهرة سيتولاه فى يوم قريب برعايته ليصنع منه نايا متفردا وسط بقية نايات البلاد تفرده هو وسط بقية أعواد الغاب المحيطة به، نايا لم ير أحد له مثيلا، نايا يملأ الأفق بألحان

شجية سيسمعها الناس لأول مرة، نايا يستلقى داخل علبة سوداء مستطيلة كعلب الآلات الموسيقية المكسوة من الداخل بالقطيفة الحمراء أو بالجوخ الأخضر، حيث يتم ادخاره لمناسبة عظيمة.

فهذا الناى هو الذى سيتم اختياره من بين آلاف النايات الأخرى لكى يعزف عليه أول كونشرتو يتم تأليفه للناى الشرقى الذى لم يدخل الأوركسترا السيمفونى بعد، وسيقدم هذا الكونشرتو لأول مرة فى حفل كبير فى دار الأوبرا يحضره جميع عظماء البلاد من رجال المال والسياسة والثقافة ونجوم المجتمع.

فى هذا الحفل، ستتركز أنظار الحاضرين جميعا ليس على الأوركسترا السيمفونى، وليس على عصا المايسترو الأجنبى الذى سيحضر من أوروبا خصيصا لكى يقود الأوركسترا فى هذا العمل الفنى الكبير، وإنما على ذلك الناى الفريد الذى لم يسمع أحد أنغامه من قبل، وسيكتشف خبراء الموسيقى السيمفونية أنه يضارع فى جمال صوته بقية آلات النفخ الخشبية الغربية كالفلوت والكلارينت والأوبوا والباسون.

لذلك، فقد كان كلما نظر إلى البيئة الريفية المحيطة به ووجد الطمى الأسود أسفل قدميه والحيوانات المائية الصغيرة اللزجة والقواقع النيلية القبيحة تحوم حوله، أصابه الغثيان.

لقد سمع من أحد العلماء الذين جاءوا إلى تلك المنطقة ليأخذوا منها بعض عينات من الطمى أن هناك أكثر من 30 مليون

كان يتطلع للذهاب إلى القاهرة مثل أقاربه متيسرى الحال الذين يطلق عليهم اسم الغاب الفارسى، والذين يتم تربيتهم فى مزارع خاصة وبعناية فائقة ليرسلوا بعد ذلك إلى المدينة، حيث تصنع منهم أدوات صيد الأسماك.. أو مثل أقاربه الآخرين ذوى الأعواد السميكة الذين يطلق عليهم اسم «البامبو»، والذين تصنع منهم أثاثات المنازل وأدوات الديكور.

غير أن طموحاته هو كانت تفوق كل ذلك.. فهو لم يكن ليقبل أن يتحول إلى عود للصيد يتدلى منه خيط من النايلون فى الماء، وأن يظل عوده يتقوس ما بين جذب إحدى الأسماك البكماء وقبضتى يدى رجل عجوز يرتدى قبعة بيضاء ويجلس على شاطئ بالإسكندرية.

ولم يكن ليقبل أن يتم طيه وليه ليتحول إلى كرسى يريح عليه أحد الآدميين الجهلاء مؤخرته.

كان يرفض هذا وذاك بمثل ما كان يرفض وقفته الحالية فى شمس الصيف الحارقة وفى أمطار ورياح الشتاء العاتية. لا، ليس هذا ما خلق له هذا العود الجميل من الغاب!

كان يعلم فى قرارة نفسه أن أحد أمهر صانعى الآلات الموسيقية فى القاهرة سيتولاه فى يوم قريب برعايته ليصنع منه نايا متفردا وسط بقية نايات البلاد تفرده هو وسط بقية أعواد الغاب المحيطة به، نايا لم ير أحد له مثيلا، نايا يملأ الأفق بألحان

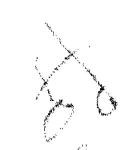
شجية سيسمعها الناس لأول مرة، نايا يستلقى داخل علبة سوداء مستطيلة كعلب الآلات الموسيقية المكسوة من الداخل بالقطيفة الحمراء أو بالجوخ الأخضر، حيث يتم ادخاره لمناسبة عظيمة.

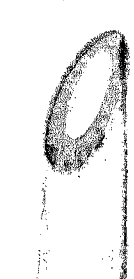
فهذا الناى هو الذى سيتم اختياره من بين آلاف النايات الأخرى لكى يعزف عليه أول كونشرتو يتم تأليفه للناى الشرقى الذى لم يدخل الأوركسترا السيمفونى بعد، وسيقدم هذا الكونشرتو لأول مرة فى حفل كبير فى دار الأوبرا يحضره جميع عظماء البلاد من رجال المال والسياسة والثقافة ونجوم المجتمع.

فى هذا الحفل، ستتركز أنظار الحاضرين جميعا ليس على الأوركسترا السيمفونى، وليس على عصا المايسترو الأجنبى الذى سيحضر من أوروبا خصيصا لكى يقود الأوركسترا فى هذا العمل الفنى الكبير، وإنما على ذلك الناى الفريد الذى لم يسمع أحد أنغامه من قبل، وسيكتشف خبراء الموسيقى السيمفونية أنه يضارع فى جمال صوته بقية آلات النفخ الخشبية الغربية كالفلوت والكلارينت والأوبوا والباسون.

لذلك، فقد كان كلما نظر إلى البيئة الريفية المحيطة به ووجد الطمى الأسود أسفل قدميه والحيوانات المائية الصغيرة اللزجة والقواقع النيلية القبيحة تحوم حوله، أصابه الغثيان.

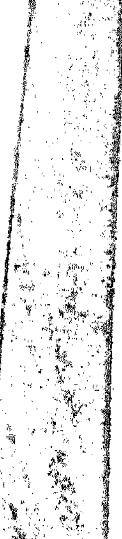
لقد سمع من أحد العلماء الذين جاءوا إلى تلك المنطقة ليأخذوا منها بعض عينات من الطمى أن هناك أكثر من 30 مليون





نوع مختلف من الكائنات العضوية الدقيقة كالبكتريا والفطريات فى كل جرام واحد من هذه التربة الزراعية، فكيف يمكنه هو الذى سيصبح نايا فريدا عما قريب أن يعيش وسط تلك البيئة الموبوءة؟!

لم يكن يحادث أحدا ولم يكن يستمع لأحد، فقد كانت الأصوات التى تجيئه فى هذه المنطقة كلها نشازا ولا تحتمل، سواء كانت أصوات أعواد الغاب المحيطة به والناتجة عن تخبطه فى بعضه البعض أو أصوات الضفادع وصراصير الحقل فى المساء، والتى كانت كثيرا ما تحول دون أن يغمض له جفن.



لم يكن يستمع إلا لتلك الأصوات التى بداخله، والتى لم تكن ألحانا شعبية بلهاء كتلك التى يرددها أهل المنطقة، ولكنها كانت ألحان كونشرتو عظيم كتب للناى والأوركسترا.

كان يتخيل وسط أحلام اليقظة التى كان يعيش فيها أن عزفه سيكون مفاجأة، وأن دخوله إلى الكونشرتو سيكون مبهرًا، حيث سينتظر البعض أن يعزف ألحانا شرقية كتلك التى تعود الناس سماعها من الناى، لكن ألحانه ستجىء غربية خالصة، وسينسى الجمهور بعد قليل أنه يستمع إلى كونشرتو

مصـرى لآلة شعبيـة من آلات التخت الشرقى. سيتصـور الجميع أنهم يستمعون إلى كونشرتو «الإمبراطور» لبتهوفن لأن عزفه سيكون بهذه العظمة أو إلى أحد كونشرتوات «براند نبرج» لباخ لأن أنغامه ستكون بهذه العذوبة.

وكونشرتو الناى الذى كانت حركاته الثلاث مكتملة فى مخيلته لم يكن كونشرتو مائعا مثل تلك الكونشرتوات التى ألفها شوبان للبيانو والتى تتداخل فيها ألحان البيانو مع ألحان الأوركسترا حتى يكاد الواحد يذوب فى الآخر.

فتلك الألحان كانت تذكره بأصوات الناى البلدى التى كثيرا ما كان يسمعها من بعض العازفين الريفيين من أهالى المنطقة الذين كانوا يمرون عليه فى قواربهم الصغيرة فى النيل، وهى ألحان كانت دائما تصيبه بالسأم.

الكونشرتو الذى سيعزفه سيختلف عن أى كونشرتو آخر، فهو لن يردد أيا من أنغام الأوركسترا، بل إن الأوركسترا هو الذى سيردد الأنغام وراءه.

سيكون هو في المقدمة دائما وسيتبعه الأوركسترا.

لم يكن يتصور الكونشرتو عملا جماعيا يعتمد على التناسق والتناغم ما بين الآلة المنفردة والأوركسترا، بل كان يتصوره مبارزة لحنية تصل إلى حد التصارع ما بين أنغامه المنطلقة بلا حدود والمحاولات اليائسة للأوركسترا للحاق به.

لم يكن الكونشرتو فى الحقيقة إلا فرصة لإثبات تلك القدرات الخارقة التى كان يتصورها كامنة فى داخله، والتى كان ينتظر بفارغ الصبر أن يستطيع استعراضها أمام الجماهير.

ثم جاء أخيرا اليوم المنتظر، حيث هجم على أعواد الغاب مجموعة من الفلاحين الحفاة وأخذوا يقتلعونها من الأرض ويزيلون ما يحيط بها من أعشاب يابسة فيما يعرف بعملية «الفسخ» التى عادة ما تتم فى بداية الربيع من كل عام وقبل هبوب رياح الخماسين.

كانت عملية همجية مؤلمة لكنه تحملها، وعيناه على المستقبل الذى كان ينتظره عندما يصل إلى القاهرة.. كان يسمع صرخات الألم الصادرة من بقية أعواد الغاب من حوله وهى تقتلع من جذورها الضاربة فى الأرض، لكن صرختة هو كانت أشبه بالشهيق العميق الذى يأخذه المولود الجديد عند خروجه إلى الدنيا والذى يسبق بكاءه، وإن كان شهيقه هو لن يعقبه بكاء، وإنما سيعقبه لحن قوى متواصل لن يكف الناس عن ترديده، بعد أن يعزفه لأول مرة فى ذلك الحفل العظيم الذى كان الجميع ينتظرونه بالقاهرة.

وسافر إلى القاهرة فى سيارة نقل كبيرة لابد أنها أرسلت خصيصا من أجله، برغم أنها كانت تقل مئات الأشياء الأخرى التى لا يعرف ما هى، فهو لم ينظر إليها طوال الرحلة الطويلة التى قطعتها السيارة من الصعيد إلى القاهرة.

وقد حاول جاهدا أن يتحمل مشقة الرحلة، لكنه لم يستطع، كان الزحام فى سيارة النقل خانقا. لم يكن هناك هواء مثل الهواء الذى كان يعرفه على ضفاف النيل، ولم يكن هناك ماء كما هو الحال فى موطنه الأول، وبدأ يزداد شعوره بالجفاف والحرارة والاختناق، ثم أغشى عليه.

وفى القاهرة، أفاق ليجد نفسه مغروسا فى حوض كبير لنباتات الزينة بأحد منازل القاهرة، وقد استند إليه عود عملاق من نبات «الفيكس ديكورا» كان قد بدأ يميل فتم غرسه خلفه حتى يبقيه منتصبا.

لم يعرف كيف انتهى به المطاف إلى هذا المكان.. لابد أنه حدث خطأ.. أين صانع الناى الذى كان ينتظره؟..أين الكونشرتو؟ وأين الحفل؟.. ظل يصرخ، لكن أحدا لم يجبه فلم يكن هناك أحد من حوله سوى ذلك النبات الأصم الذى يستند إليه.

كان كل ما يحيط به صناعيا. فالهواء بارد برودة جافة تختلف عن البرودة التى كان يعرفها على ضفاف النيل، وهو ينبعث من جهاز كهربائى مثبت بالحائط المجاور له.. والطمى الذى غرس فيه هو طمى صناعى عرف فيما بعد أنه موضة الآن فى القاهرة، فمعظم البيوت الأنيقة لم تعد تستخدم الطمى الطبيعى، وإنما هذا الطمى الصناعى المستورد والذى هو فى الحقيقة يتكون من قمامة الحدائق من الأوراق اليابسة والأغصان المتساقطة؛

والمواد العضوية الأخرى التى يضاف إليها بعض الكيماويات، ثم تترك لتتعفن فيما يعرف باسم «المكمور»، وتتميز بأنها تحتفظ بالماء أكثر من الطمى الطبيعى، ومن ثم فهى لا تتحجر مثله، كما أنها خالية تماما من الحشرات والديدان وسائر الكائنات العضوية الأخرى.

أما الموسيقى التى كان يسمعها فى بعض الأحيان عندما يكون هناك حفل عشاء بالمنزل، فكانت موسيقى غريبة عليه تماما تعزفها آلات إلكترونية لم يسمع بها من قبل وتصدر عن جهاز يدور بداخله شريط كاسيت تقوم صاحبة البيت باستبداله كلما وصل لنهايته.

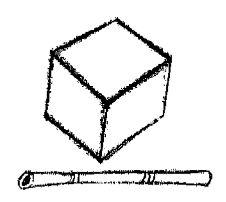
وقرر أن يتذرع بالصبر قليلا، فربما كانت تلك مرحلة سينتقل بعدها إلى أيدى صانع الآلات الموسيقية الماهر الذى تعرف عليه فى أحلامه.. لكن الأيام مرت.. اليوم تلو الآخر.. إلى أن تحولت إلى شهور.. وهو مغروس فى هذا الطمى الصناعى بحوض الزرع فى ذلك المنزل الأنيق بالقاهرة دون أن يلتفت إليه أحد.

وبدأ يقلق.. ثم تحول قلقه إلى خوف حقيقى بعد أن أدرك أن حلمه لن يتحقق.. ثم بدأ يشعر أن نهايته تقترب، حين وجد العفن قد بدأ يدب فى عقلاته السفلى المغروسة فى ذلك الطين الصناعى الخالى من الحياة.

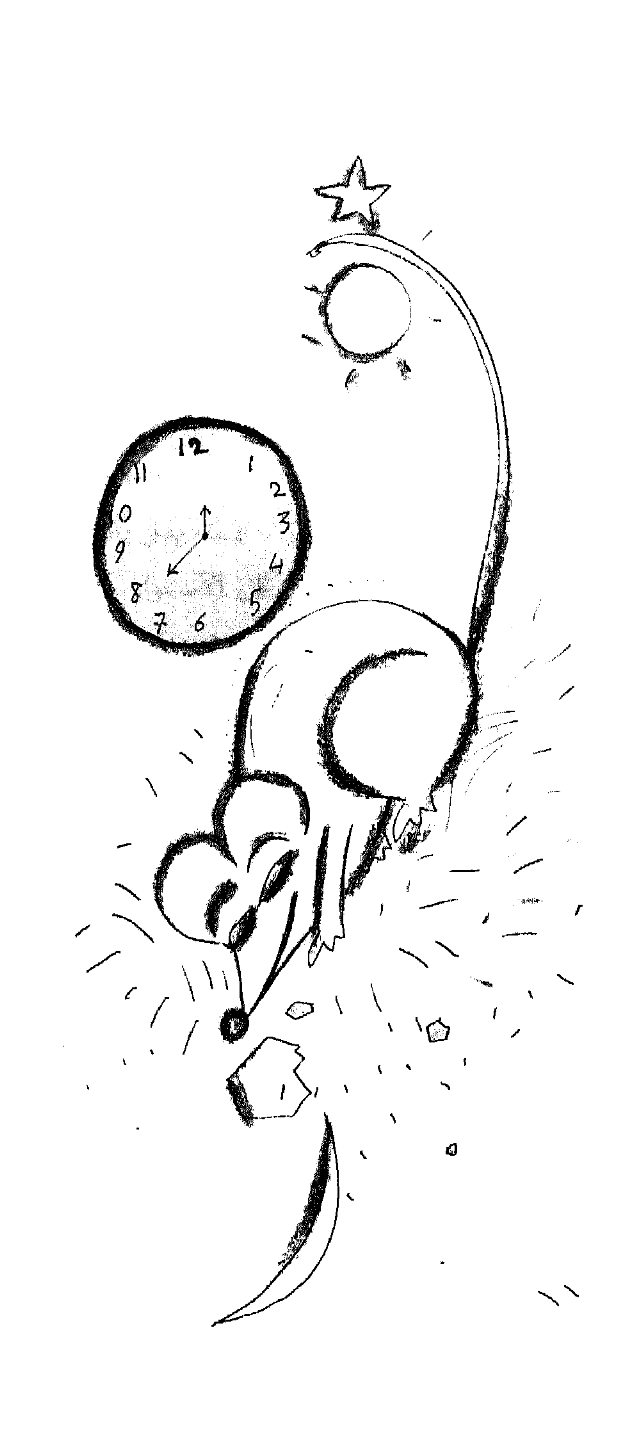
وبدأ لأول مرة يشعر بالحنين إلى حياته السابقة على ضفاف النيل فى أعالى صعيد مصر حيث الشمس والهواء الطلق بتقلباته الموسمية من الخريف إلى الشتاء ومن الربيع إلى الصيف.. حيث صحبة رفاقه من الغاب البلدى، وحيث الطيور والأسماك والقواقع النيلية التى كانت تحيطه بدفئها وحنانها. وبدأ يشعر بالحنين لصوت الناى الحزين الذى كان يأتيه من القوارب المارة فى النيل.. ولأصوات الضفادع التى كانت تشكل الخلفية الإيقاعية لذلك اللحن الشعبى الأصيل.

لكن حنينه الأكبر كان لذلك الطمى النيلى الأسود وتراب صعيد مصر الذى هو نتاج آلاف السنين من أجساد الأجداد من الآدميين والحيوانات والنباتات التى عاشت فى هذه البقعة من العالم فآثْرَتْها حتى أصبحت من أخصب الأراضى فى العالم.

وأدرك لماذا كانت أعواد الغاب تصرخ حين كان يجرى اقتلاعها من تلك الأرض التى لن يعود إليها ثانية.. لأنه حين يترك مكانه فى ذلك المنزل الأنيق بالقاهرة لن يكون للعودة إلى موطنه السابق، وإنما ليلقى به فى القمامة!



فأر الحقل



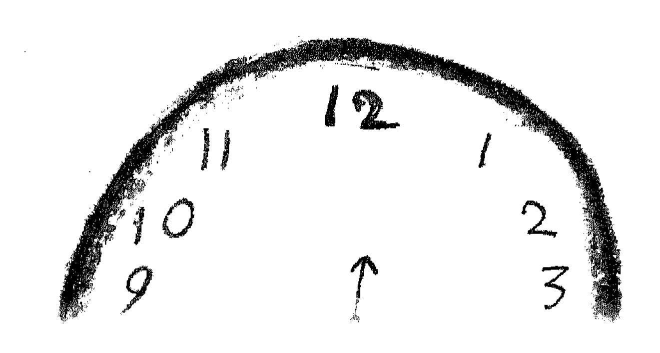


أنا فأر الحقل الصغير.. بيتى جحر صغير صنعته بنفسى تحت الأرض وأحطته بالحطب والأعشاب اليابسة حتى لا تدخله الحيوانات الأخرى ..

لكنى اليوم جاءنى زائر آخر.. جاء يدق بابى بقوة.. إنه الشمس التى تخترق أشعتها كل الأسوار. جاءت بعد شتاء طويل، كأنى لابد أن أفتح لها الباب.. أقدم لها نفسى وحياتى لتعبث حرارتها بين جنبات بيتى كما تشاء.. لا .. لن أفتح الباب.

مضى شتاء دافىء طويل خبأنى من رياح الطريق وأعاصيره العاتية، فاعتدت حياتى ولم أعد أعبأ بالشمس ولا بالريح.. الليل هو الدائم الوحيد.. أما الشمس فلا تشرق إلا لتغيب.. فما لى بما هو مؤقت إذا كان لدىّ ما هو مستديم؟ كيف أستبدل برفيق دائم ضيفا دائم الترحال؟ لن أفتح الباب..

عادت الشمس تدق بابى من جديد.. أصرت على الدخول.. من تحت عقب الباب نفذ بعض من أشعتها.. من بين شقوق الجدران.. اخترقت حرارتها الهواء.. ألقت داخل ظلام البيت الهادئ بقعا من نور.



قد عرفت الشمـس من قبـل.. دخلت بيتـى من قبل.. تخللت أشعتـها كل حياتى حتى صارت كلها نورا .. لم تعد ترى فى حياتى الظـلال.. تحولت حياتى إلى نهار دائم.. لا ليـل فيها ولا غروب.

كم كانت عيناى تشتاقان فى بعض الأحيان إلى قدر من الظلام.. كم كانتا تشتاقان إلى النـوم.. لكن من ذا الذى يستطيع النوم فى وهـج النهار؟ من ذا الذى يترك الضياء ليذهب إلى الظلام؟

وأخـذت أعـب من الحياة عبا وأنـهـل من ضيـائـها أكثـر مما يستطيـع وجـودى احتـواءه.. كانت حيـاتـى شهـقـة واحـدة طويـلة بـلا زفير.

لكن فجأة دون مقدمات، ذهب الضياء وعم الظلام.. ذهبت الشمس دونما إنذار.. تركتنى لبرد الشتاء.

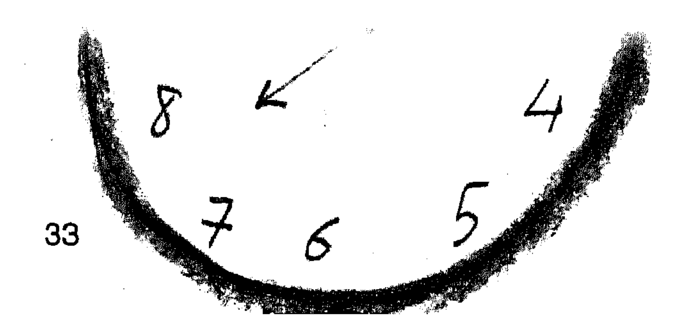
لم أفهم سبب الرحيل.. أخذت أسأل نفسى لماذا رحلت؟ أين عساها تكون؟ بحثت عنها فى كل مكان كالمجنون.. لكنى لم أجد سوى ظلام.

وبدأت أشعر بالوحدة.. بدأت البرودة تزحف إلى حياتى ودب فى قلبى شعور عارم بالرهبة والخوف.. الخوف من هذا الليل الطويل الذى ينتظرنى. الليل الذى لا حياة فيه.. الرهبة من الموت الذى سأحياه بعد أن فارقتنى الحياة.

وفى تشبث مستميت بالحياة التى أخذت تبعد عنى كما تبعد أمواج البحر عن رمال الشاطئ فى ساعات الجزر، بدأت أجتر ذكريات الماضى حتى أستطيع أن أعيش الحاضر الأليم.

ومع مرور الأيام بدأت دون أن أدرى أعتاد الحياة بلا شمس ولا ضياء.. بلاأشعة ولا حرارة.. الحياة الهادئة الظليلة حيث يستطيع الإنسان أن يأمن على يومه وغده.. عارفا ما هو فيه الآن وما سيصير إليه غدا.

بدأت أشعر بدفء الشتاء الذى يتولد عن الطمأنينة والهدوء.. وإذا بحياتى تتحول تدريجيا من ساق أخضر صغير وسط عاصفة ضوء هوجاء.. إلى بناء راسخ القدمين.. شجرة خضراء عملاقة تضرب جذورها فى عمق التربة السوداء المظلمة.. وتتفتح الأزهار فوق فروعها بجميع ألوان



الطيف.. زهرة وراء الأخرى تتفتح.. واحدة حمراء كشمس المغيب.. والثانية صفراء كسنابل القمح الذهبية. والثالثة بيضاء كالثلوج التى تكسو أعالى الجبال.. إنها شجرة الخريف والشتاء التى تنمو بعيدا عن وهج الشمس ولهيب أشعتها الحارقة.

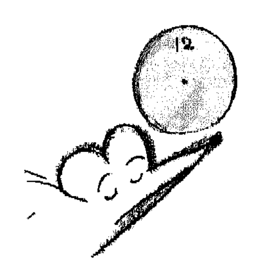
توالت ليالى الشتاء الطويلة لكنى عرفت الحيلة الآن.. لم تعد تخيفنى الظلمات.. الظلام هو رفيقى الأكيد.. لم أعد أعانى وحدة الفراق.. أصبحت أعرف الآن أن الشمس لا تأتى إلا لتغيب.. فلتدق الشمس بابى كما تريد فلن أفتح الباب.

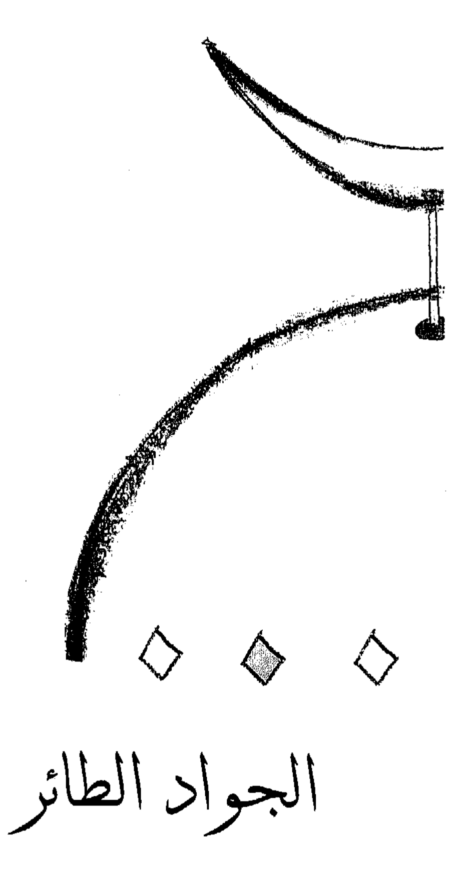
إذا فتحت فسيقتحم النور روحى.. سيشتعل يومى بالضياء.. ستعود حياتى شهيقا عميقا بلا زفير.. سأعود أعب من الحياة كما أشاء.. سابحا فى بحر من نور.. ستعود أشعة الشمس تحملنى فى السماء.. سأعود أحلق حيث لم يصل طير ولا إنسان.. لكن ذلك لن يدوم.. ستختفى الشمس من جديد.. فجأة وبلامقدمات.. كما فعلت من قبل.. كما تفعل دائما.

لكن لا شىء يدوم. لا الشمس ولا حتى الظلمات.. لا شىء دائم إلا هذا التغير والتبدل.. من النهار إلى الليل.. ومن الليل إلى النهار.. من المد إلى الجزر. ومن الجزر إلى المد.. هذا هو الدائم الوحيد.. فلماذا نقف فى وجه الطبيعة ونواميسها؟!

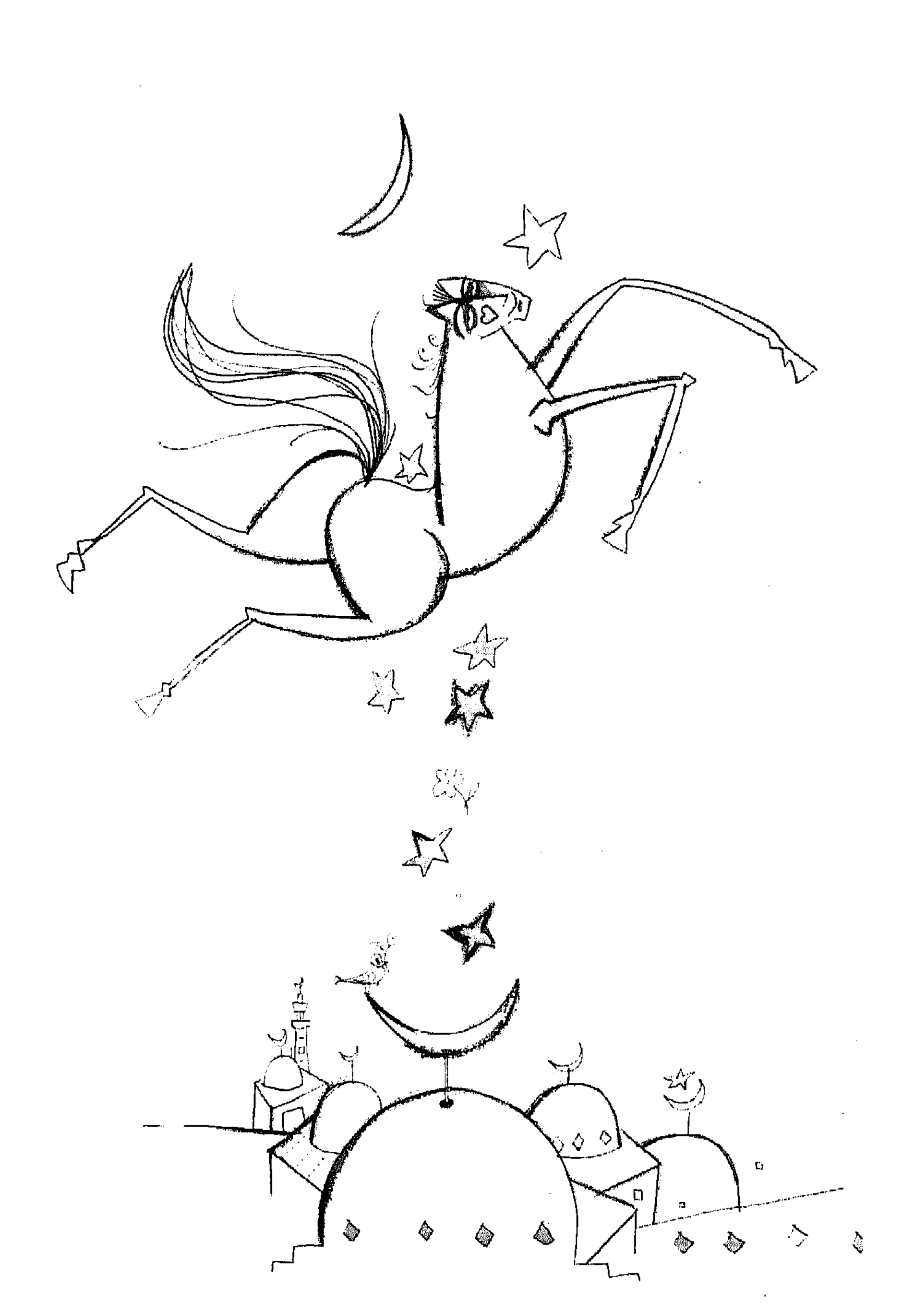
إن عودة الشمس الآن فى الربيع شىء طبيعى كما كان اختفاؤها طبيعيا فى الشتاء.. لذلك فهى ليست بحاجة لاعتذار كى تدق بابى كما تفعل الآن، بل هى ليست بحاجة لاستئذان.. ستدخل الشمس بيتى من جديد سواء أردت أم أبيت.. ستقتحم حياتى بقوة وعنف، وسيسقط عنادى صريعا أمام دفء أشعتها المضيئة كما تتهاوى أسوار المدينة أمام الغازى الجبار!

أعرف أن الشمس ستتركنى ثانية كما تركتنى من قبل.. لكنها قبل أن تفعل ذلك ستكون قد أشعلت وجودى بنورها للحظات قد تقصر أو تطول، فبعد الليل يجب أن يأتى النهار.. هذه هى سنة الحياة. وها قد ذهب الآن الليل وعادت الشمس تدق بابى.. سأفتح لها الباب.





الجواد الطائر





صباح يوم من أيام الخريف، رحل الجواد بعد حياة حافلة بالحركة والنشاط.. ما إن بزغت شمس النهار الجديد بعد ساعات الليل الطوال حتى رحل إلى حيث كان يتطلع طوال حياته.. هناك فوق المآذن والقباب حيث السكينة الأبدية.. حيث الخلود.

كان شابا فتيا دائم الترحال، جاب جميع أرجاء الدنيا وركض فى كل اتجاه.

لكن قلبه لم يكن يحمل إلا صورة واحدة.. مشهد قباب المساجد ومآذنها التى ترتفع شامخة فى سماء القاهرة.

ولد فى حى القلعة القديمة وسط قطعان غفيرة من الجياد، لكنه كان مختلفا عنها جميعا.. كانت الجياد من حوله بيضاء كالحة أو سوداء داكنة، لكنه كان أشهب فيه بياض حالم كالسحاب وسواد مخملى كالليل وتزين جبهته غرة بيضاء كأنها التاج الملكى.

كان جوادا جامحا لا يخفت له صهيل ولا تسكن له حركة.. فى دورانه المستمر كان يرسم دوائر متداخلة متكررة هى حلقات قباب مساجد السلطان حسن والحسين والأزهر

الشريف وجامع صلاح الدين.. دوائر لا نهائية تخترقها خطوط رأسية هى المآذن الشاهقة المدببة كريشة الفنان.

لكن حقد بعض أقرانه من الجياد البيضاء الكالحة أو السوداء الداكنة كان يطارده فى كل مكان كالقطة الضالة، وهو فى حركته الدائمة الدائبة لم يكن يعبأ لذلك.. كانت عيناه اللوزيتان الكحيلتان على جانبى غرته البيضاء الناصعة تتجهان دائما إلى أعلى، حيث قباب المساجد التى ولد فى كنفها وأحبها، حيث المآذن التى كانت تصعد به إلى العنان فى السماء.

كان أبناء الحى يتطلعون مثله إلى الارتفاع إلى حيث الزرقة والاتساع، ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يفعلون ذلك..

هو وحده الذى كان يعرف.. هو وحده الذى كان يستطيع أن يصعد على سرجه الجميل المطعم بالذهب والفضة إلى قمم المآذن.. إلى ظهر القباب.

لكن أقرانه من الجياد الأخرى البيضاء والسوداء لم تكن لتسكت على ذلك.. ألا يكفى أنه أشهب وهى كالحة أو داكنة؟! هل سيتحول أيضا إلى معبود للناس يقودهم إلى تلك الأعالى التى يتطلعون إليها؟! يجب أن يتم تقييده بالحبال حتى لا يصعد

إلى المآذن والقباب.. حتى لا يرتفع بالناس إلى هناك.. إلى العنان فى كبد السماء.

لكن الجواد كان قويا فتيا فلم يقدروا عليه.. اكتفوا بمعايرته بشهبته البيضاء.. قالوا إنه لا هو بأبيض ولا بأسود.. قالوا إنه بين بين.

أما عند الناس فقد بدأ صيته ينتشر ويذيع.. بدأ أبناء الأحياء المجاورة يفدون إلى حى القلعة القديمة ليتنصتوا إليه وهو يحدثهم عن قمم المآذن وعن ظهر القباب.

وفى الليل البهيم بينما كان الجواد الأشهب نائما تسللت إليه بعض الجياد السوداء فلم يتبينها أحد فى جنح الليل، ثم غرس أحدهم خنجره المسموم فى كبده وفروا جميعا هاربين.

وفى الصباح بدأ السم يزحف على جسد الجواد فيصيبه على الفور بالهزال، ويفقده حركته، ويذبل عينيه اللوزيتين، إلى أن خر الجواد على الأرض غير قادر على الحركة.

ثم جاءته الجياد البيضاء الكالحة فى وضح النهارفقيدته بالحبال وكممت فمه الذى توقف عن الصهيل وسرقت سرجه المطعم بالذهب والفضة.

وعندما شاهد أهل الحى سرج الجواد الأشهب يباع فى الأسواق بأبخس الأسعار، أدركوا أنه لابد قد أصابه مكروه فهرعوا إليه ليروا ما حدث،

لكنهم حين وصلوا إليه كان قد فقد الوعى ولم يعد يدرى ما يجرى حوله.. فقط حين تعالى صوت بكاء الناس من حوله رفع جفنيه لأول مرة.. لكنه لم يرهم.. كانت عيناه قد فقدتا بياضهما الناصع وتحولتا إلى صفرة مريضة.. أحس بالناس من حوله دون أن يراهم.. حاول أن يتبينهم فلم يستطع. حاول مرة أخرى الفكاك من قيوده فلم يقدر.. حاول الصهيل فلم يصدر عنه صوت. كم كانت معاناته وهو مقيد لا يستطيع الحراك، لا يستطيع القيام، لا يستطيع الصهيل، لا يستطيع الصعود.. وكم حزن الناس وقد فقد القدرة على أن يحدثهم ويحثهم على الصعود إلى قمم المآذن.. إلى أعلى القباب.

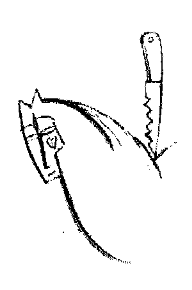
ومرت الأيام طويلة قاسية مريرة والجواد الأشهب فى مرقده؛ والقيود تضغط على جيده الهزيل وتزداد إحكاما حول معصمه، وعلى فمه، وفوق عينيه.

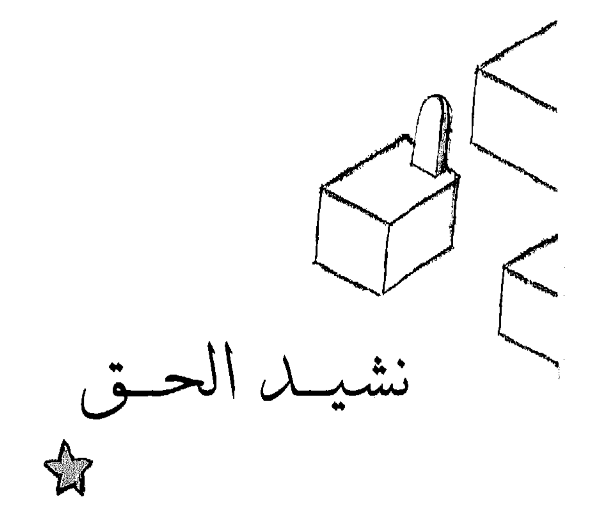
وفى النهاية دون أن يفتح الجواد عينيه ودون أن يفتح فمه.. نظر إلى ربه وحدثه.. تضرع إليه فى خشوع.. رجاه بكل ما تبقى به من قوة أن يصعد به إلى السماء.. فهو لا يستطيع أن يبقى طويلا طريحا على الأرض بعد أن عاش حياته كلها يتطلع إلى هناك.. فوق المآذن والقباب.

أمضى الليل بطوله يحدث ربه ومن عينيه الصفراوين انهمرت الأنهار غزيرة دافئة.. ومع فجر اليوم التالى كان قد

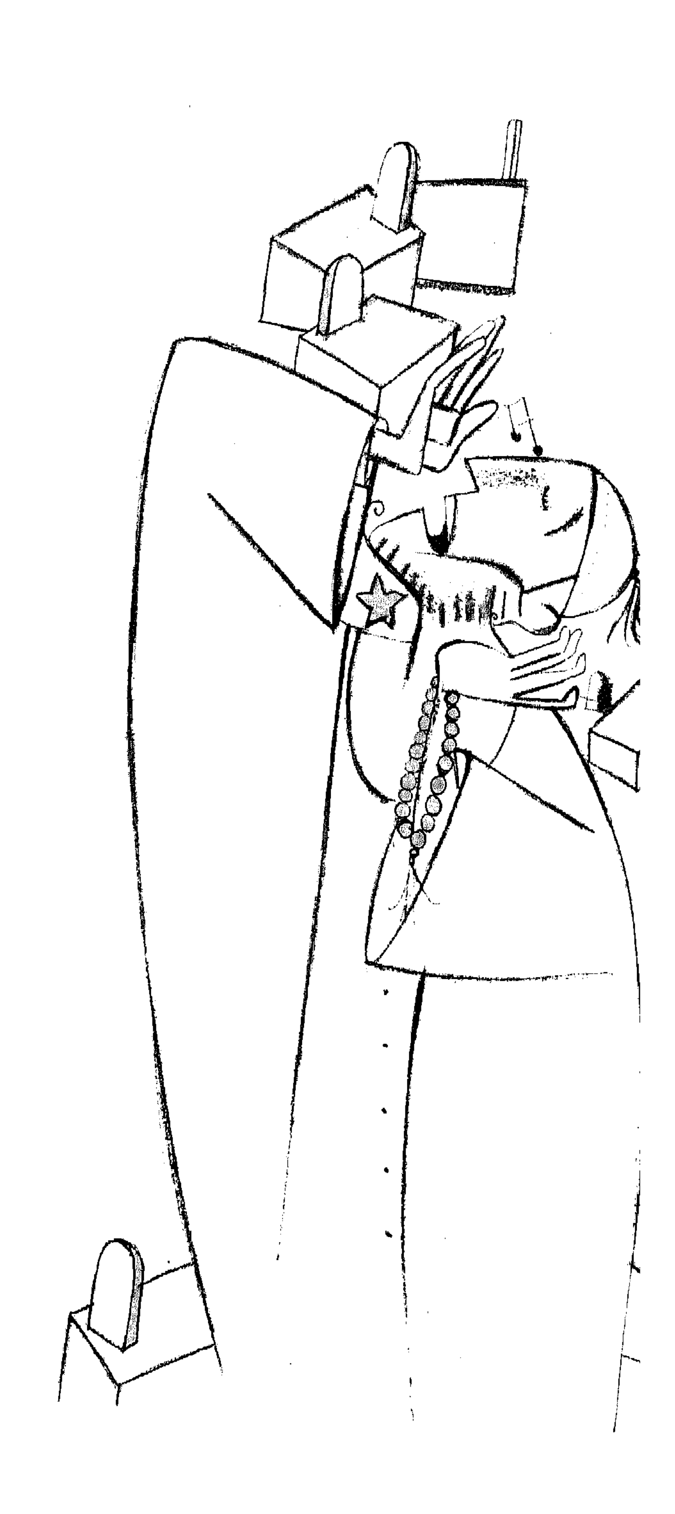
ظهر على جانبى الجواد جناحان كبيران بدآ يتحركان فى بطء إلى أعلى وإلى أسفل.. إلى أعلى وإلى أسفل. حتى ارتفعا بجسده الهزيل عن الأرض شيئا فشيئا.. وما هى إلا لحظات حتى كان هناك.. فوق قمم المآذن.. وفوق ظهر القباب.

وفى الصباح شاهده الناس بين السحب فى السماء يصهل بين المآذن، يطير فوق القباب، وقد التمع جسده تحت أشعة شمس الخريف الهادئة.. كان يشع على الأرض ضوءا نورانيا نادرا.. أخذ يمطر المآذن والقباب بالورد والزهور والرياحين من كل نوع ولون. وتوافد أبناء الأحياء فى الساحة ليشاهدوا جوادهم الأشهب مشدوهين. بمنظره فى السماء وهو يضرب بجناحين فيبدو وكأنه البراق، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الثقة بأنهم برغم كل الصعاب، سيتمكنون هم أيضا من التحليق مثله فى يوم من الأيام هناك، حيث لن يطولهم شر، ولن يطاولهم أحد.. هناك.. فوق قمم المآذن.. فوق ظهر القباب.





نشيـد الحـق



للناس إن ذلك محض هذيان.. بل هو كفر
وإلحاد.. إن الموتى لا يُبْعثون.. وما فات قد مات.
لكن الصوت عاد يسمع من جديد.. صوت قوى
وجميل.. وازدادت حدته، وعظمت قوته حتى صار
يسمع في جميع أنحاء البلاد.. يقول: نعم قد مت
لكن الحق لا يموت.

واجتمع أساطين الإنشاد من جديد، وخرجوا على الناس يقولون: إن الحق هو ما نقول وليس ما تنطق به القبور.. وأين كانت القبور طوال تلك السنين؟!

لكن صوت المنشد والنشيد أخذ يسمع من جديد.. صار يسطع في الليل والنهار.. يبرق فى الليل ويشع في النهار.. يقول: أنا الحق والحق أنا.. عودوا إلىَّ فأنا اليقين.. حدثتكم في الزمان فأنصتم إلىَّ.. وأنشدتكم فطربتم للنشيد.. ثم مت وتركت لكم النشيد مُدوَّنا على ذهب بحروف من عبير..

وجاءكم الدجالون فأعطيتموهم النشيد، فأخذوا يبدلون فيه ويغيرون حتى صار النشيد غير النشيد.. باعوا الذهب وبددوا العبير، فضاع الحق بين أصوات المنشدين.. وأنتم سمعتم وطربتم للأصوات.. ونسيتم العهد واللقاء.. فهل مت أنا، أم أنتم الأموات؟

واجتمع الأساطين من جديد، وقالوا: هذا سحر من عند

الشيطان.. من اتبعه سلك طريق البطلان!

لكنه كان قد فات الأوان ولم يعد الصوت هو صوت القبور ولا الأموات.. فقد صار الآن يعلو من الربوع والنجوع.. أخذ ينبعث من صدور الأحياء.

ومع كل شمس ليوم جديد كان يزداد عدد المنشدين.. ينشدون نفس النشيد.. نشيد الحق وأغنية اليقين.

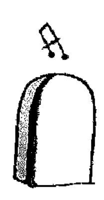
زجوا بهم في السجون.. فتصاعدت أصواتهم من وراء الأسوار.. تنشد النشيد.

ألقوا بهم في البحور.. فتعالت أصواتهم من الأعماق.. تنشد النشيد.

أحرقوهم في النار.. فاحتدمت أصواتهم كألسنة اللهيب.. تنشد النشيد.

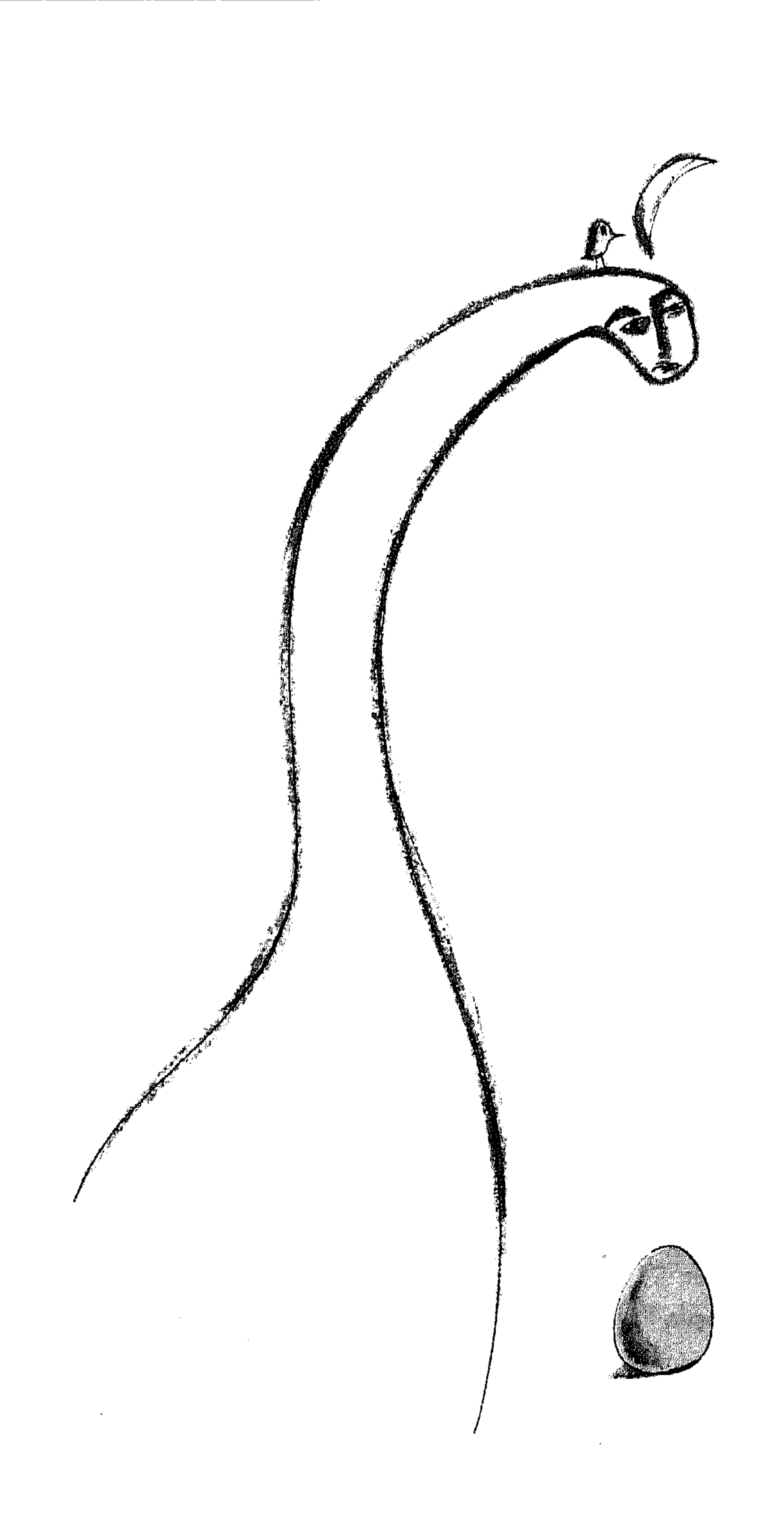
وفي كل مرة كان يُسمع فيها صوت النشيد، كانت تصيب الصاعقة قلب الأساطين فيخرسون ولا يعودون ينطقون.

وانتقل النشيد من لسان إلى لسان حتى صارت كل البلاد صوتا واحدا عذبا وقويا.. وعاد المنشد ينشد للحق والجمال.





نهاية الديناصورات





اكتشف العلماء أخيرًا فى صحراء مصر الغربية بقايا هياكل عظمية لنوع عظيم من الديناصورات انقرض منذ عشرات الملايين من السنين. وقد اتضح أن الديناصورات المصرية من أضخم أنواع الديناصورات التى عرفها التاريخ. وقد كان هذا الاكتشاف مثار دهشة كبيرة للناس حين قيل لهم إن الديناصورات عاشت فى مصر، لكن ربما كان مدعاة الدهشة الحقيقية هو كيف نجحت بعض المخلوقات الصغيرة فى أن تقضى على هذه الكائنات العملاقة التى كانت تجور على كل ما هو أخضر يانع على وجه الأرض، والتى كانت تدهس فى سيرها كل ما تصادفه فى طريقها من الكائنات الأخرى الصغيرة، وتصيبها فى أرزاقها وقوتها اليومى.

لكن التاريخ المصرى لم يعرف فقط الحيوانات المفترسة، وإنما عرف أيضا بعض الكائنات الأخرى التى تعتبر مثالا للنبل والجمال، والتى طالما عانت من بطش تلك الحيوانات العملاقة الجائرة، لكنها عرفت فى النهاية كيف تقضى عليها .

فى البداية، لم يتصور أحد أن هذه المخلوقات القبيحة ذات الأحجام الهائلة يمكن أن تصيب العالم بكل هذا الدمار. فقد

خرجت الديناصورات من بيض هش دفن فى الرمال الساخنة حتى جاء موعد فقسه فخرجت منه كائنات صغيرة مرتعشة، احتضنتها الزواحف وأحضرت لها الحشرات والطعام وظللتها الطيور بأجنحتها من قيظ شمس الصيف الحارقة. لكن ما أن شبت هذه المخلوقات الصغيرة وثبتت خطاها على الأرض، حتى صارت ديناصورات عملاقة لا يروى ظمأها ماء ولا يشبع جوعها طعام، فقد توحشت خلال سنوات قليلة وصارت تهدد الحياة نفسها أينما وجدت.

وفى يوم مضطرب، خرجت الديناصورات تسطو على قوت بقية المخلوقات، فتلتهم كل صغيرة وكبيرة أمامها، وتدوس بأجسامها الهائلة التى تبلغ أوزانها الـ 70 طنا، الأشجار والجبال وأعشاش الحيوانات حتى صارت الأرض كلها خرابا. ووسط هذا الجو المكفهر والأتربة المتصاعدة من هذا الدمار، اجتمعت باقى مخلوقات الأرض لتتدبر هذا الأمر الذى لم يعد من الممكن السكوت عليه.

كانت الكلمة الأولى بالطبع للأسود التى بدأت حديثها قائلة: لقد كنا نحن ملوك الغاب قبل مجىء هذه المخلوقات الهمجية.ومثل الملوك كنا نرعى مملكتنا، فلم نكن نقتل المخلوقات الأخرى أينما حللنا، ولا كنا ندهس كل ما نلقاه فى طريقنا، وقد كان كل منا حيوانا أليفا طالما أشبع جوعه، لأن

القتل لم يكن شيمتنا .. نحن كائنات يُخشى بطشها إذا غضبت .. لكننا لسنا دمويين، ولم يحدث قط أن قتلنا أيا من الحيوانات لمجرد القتل. كما أن شهيتنا معتدلة، وكثيرا ما تمضى الأيام دون أن نمس أى طعام.. أما هذه الديناصورات، فإنها إذا استمرت على حالها هذا فستكون تلك هى نهاية العالم.

وأنصتت جميع الحيوانات إلى حديث الأسود وقد ارتسمت على وجوهها علامات القلق والحيرة، وعندئذ سأل الجاموس الوحشى: وما العمل ؟ كل ما قاله ملوك الغاب صحيح، لكن ماذا بيدنا أن نفعل؟ كيف نستطيع أن نقف أمام هؤلاء العمالقة؟ إن طول الواحد منها 30 مترا ووزنه ترتج له الأرض!

فردت القردة : لا شىء .. لا نستطيع أن نفعل أى شىء، فما نحن إلا ذرات تراب قد لا تراها أعين الديناصورات المتوحشة! ومن الغريب حقا أن الأسود التى تأكل اللحم لا تشكل تهديدا لبقائنا، بينما هذه العمالقة الحمقاء التى لا تأكل إلا العشب تلهو بمصائرنا هكذا. لقد بتنا جميعا مهددين بالانقراض.

وهنا تدخلت النمور، فقالت : إذن ما العمل؟ يجب أن يكون هناك حل.. فماذا تقترحون؟

وفى بطء شديد التفتت السلحفاة إلى حيث كانت تجلس الأسود وقالت وفى صوتها نبرة حكمة: إن علينا أن نبحث عن طريقة تساعدنا على الخلاص من هذه الحيوانات قبل أن

نتقرض جميعا .. لأن صراعنا معها ليس على قوتنا وحده وإنما هو صراع على وجودنا نفسه..

وجاءت أسراب الطيور على كلمات السلحفاة، فحطت على أفرع ما بقى من الأشجار، وبعد زقزقة مدوية نظر إليها أحد القردة وقال: ماذا جاء بكم إلى هذا الاجتماع؟! أنتم ليس وراءكم غير الضجيج الذى لا جدوى منه. ستصدعون رءوسنا بأصواتكم المدوية دون أن تقدموا لنا أى حل!

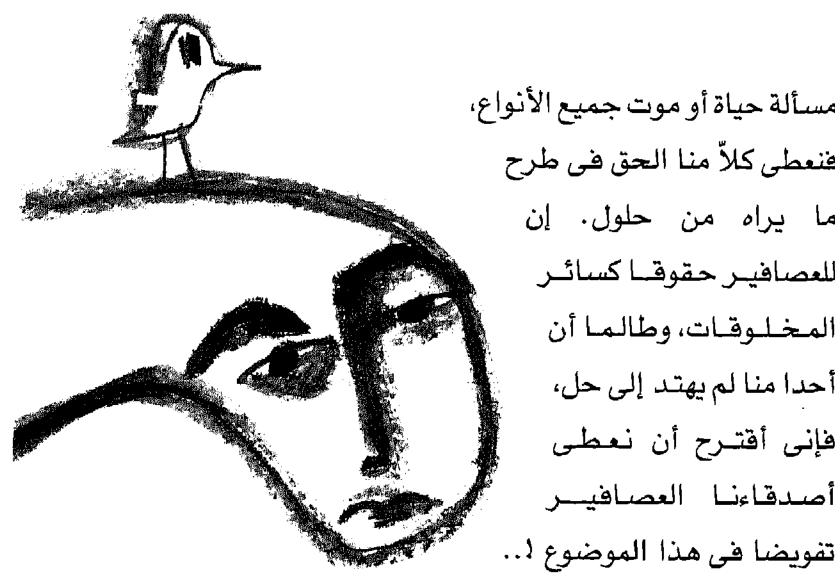
فنظرت إليه العصافير الصغيرة، ثم قالت: لقد جئنا لأن الحل عندنا نحن وليس عند أحد سوانا!

فتعالت ضحكات القردة من كل مكان! وقالت هازئة: أنتم يا أضعف مخلوقات الأرض؟ أنتم الذين ستقضون على أقوى المخلوقات وأكثرها بطشا؟!

فردت العصافير: نعم نحن .. فليسمح لنا ملوك الغاب بالتصرف، وبإمكاننا أن نؤكد لكم مسبقا أن الجيل الحالى من الديناصورات سيكون هو آخر هذه الحيوانات المدمرة، وبعده سينقرض هذا النوع ونبقى نحن لملايين السنين المقبلة.

فقالت قردة عجوز ذات شعر أحمر كثيف: عشنا وشفنا ! طيور الزينة تواجه الديناصورات!..

لكن أكبر الأسود تدخل موجها حديثه للقردة العجوز، وقال: يجب أن نأخذ الأمر مأخذ الجد.. فالقضية خطيرة لأنها



مسألة حياة أو موت جميع الأنواع، فنعطى كلاًّ منا الحق فى طرح ما يراه من حلول. إن للعصافير حقوقا كسائر المخلوقات، وطالما أن أحدا منا لم يهتد إلى حل، فإنى أقترح أن نعطى أصدقاءنا العصافير تفويضا فى هذا الموضوع !..

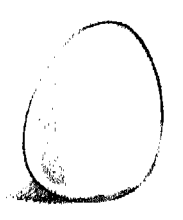
فصاحت جميع المخلوقات : موافقون!

وما إن سمعت العصافير هذه الكلمة حتى كانت تنطلق فى الهواء لتنفيذ خطتها. فأخذت تبحث عن بيض الديناصورات، وكلما وجدت واحدة منه نزلت العصافير أسرابا تدق بمنقارها قشر البيضة إلى أن تنجح بعد جهد جهيد فى ثقبها فينساب منها سائلها على الأرض، فتعود العصافير إلى طيرانها باحثة عن بيض آخر لتفعل معه نفس الشىء.

وخلال شهر واحد، كانت كل بيضة ديناصور قد تم تحطيمها، لكن العصافير ظلت تبحث عن بيض جديد، فقد كانت الخطة التى وضعتها لنفسها تقضى بأن تظل تبحث عن البيض وتنقره إلى أن يموت آخر ديناصور، لأنه عندئذ فقط لن

يكون هناك بيض جديد، وستكون الدنيا فى أمان. لذلك فإن الخطة كانت تحتاج إلى نفس طويل ومثابرة لا تلين.

ومرت الأيام والأسابيع والشهور وتتابعت الفصول والعصافير تنقر بيض الديناصورات. أما الديناصورات، فبقيت عاجزة تماما أمام هذا الوضع، فهى لا تستطيع أن تطول العصافير فى طيرانها. ولا تستطيع إخفاء بيضها عن أعينها التى كانت تكشف كل شىء من السماء. ومع الوقت أصاب العجز الديناصورات ولم يولد لها ذرية جديدة بسبب إتلاف بيضها ، فانقرضت من على وجه الأرض بسبب بغيها وظلمها لبقية المخلوقات وبسبب ذكاء العصافير ومثابرتها .

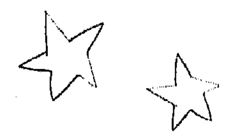


مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

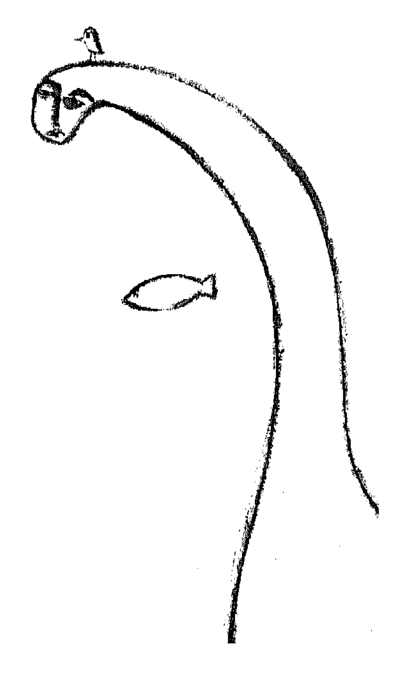






عن أشجار الجميز و صوت المؤذن وعود الغاب ومفردات أخرى كثيرة، تدور قصص هذا الكتاب الشائق فنعرف ما الذي يربط بين فأر الحقل و شمس الشتاء البديعة؟ و نرى كيف يمكن للجواد أن يطير؟ و لماذا و كيف أنقرضت الديناصورات؟ و بماذا يشعر عود الغاب بعيداً عن أرضه حتى لو صار نايا؟

بأسلوبه الممتع، ولغته المرهفة، يصحبنا الكاتب الكبير محمد سلماوى عبر تلك المجموعة القصصية فى تشويق بليغ وعذوبة جذابة، ويزين صفحاتها الفنان المتألق وليد طاهر بلمسات فرشاته المعبرة.





دار الشروق